

الحاجة إلى الجذور

للدكتور عمر حليق

— ٢ —

تراث الماضي في عنق الجيل المعاصر مسؤولية قدسية . فإذا انهدم الماضي فإن عودته ضرب من المحال . وإن أعظم الجرائم قسوة أن يهدم الناس ما ورثوه عن أسلافهم من تراث . فاعلمنا إلا أن نجعل هذا الأكبر الاحتفاظ بالقليل الذي تبقى لنا من تراث الماضي

ليس في هذه الصرخة من البلاغة والحكمة إلا ما يزيكها من تحليل دقيق وفكر عميق يطفح به هذا الكتاب النفيس (١) الذي قدمناه في المقال السابق

ولعل بين القراء طائفة تقرأ في ثنايا هذه الصرخة «رجمية» لا ترضى عنها رغبتهم في بناء المجتمع الجديد على أنقاض

L'engagement Par Simone weil

الماضي وجوده

ولكن الحاجة إلى الجذور ليست نزعة عاطفية مبمها الرجعية والمجود وما يمت إليها من ألوان المحافظة والتزمت . إنما هي غريزة روحية تكمن في نفوسنا جميعا . فحين تستذكر ما يمرى الجيل من بلبلة فكرية وانفعالات نفسية حادة لا يسمعك إلا أن توافق المؤلف على أن رجل العصر إنسان اقتلعت جذوره لأنه قطع الصلة بالتخيرة الروحية التي هي جزء من تراث الماضي ومن أصوله الخالدة

ففي الثورة على الماضي دعوة إلى القطيعة الروحية بين الخالق والمخلوق ، بين الجذور والأغصان . وهذه القطيعة من أبرز العناصر التي تريد من بلبلة الفكر وتشتت الجهد وكآبة النفس التي تشيع بين الواعين من أفراد هذا الجيل

فرجل العصر حين يقتصر في تسليحه لمواجهة مسؤولياته ومشاكله الخاصة والعامة على الماويل الحديثة المستنبطة من فنون السياسة والاقتصاد والإصلاح الاجتماعي خالية من التخيرة

ويرفع نفسه عن النقد ؟ بل ليكون أطول الناس سهرا على مصالحهم ؟ وأكثرهم شغلا بهم ، وأعظمهم تبعة ؟ وأشداهم من الله خوفا . كذلك كان الرسول صلوات الله عليه ؟ وكان أبو بكر وعمر ؟ وكان الصالحون من الملوك . وبعد فإن في كل بلد (محمد نجيب) لا تعرفونه اليوم ؛ ولكنها ستعرفه الدنيا كلها في لحظة كما عرفنا محمد نجيب ؛ وما كنا قبل دقائق قد سمعنا في الشام باسمه . وأن في كل بلد (نخت) كالحروسة ، أو سيارة تقوم مقامها (دار ابن لقمان على حالها) ...

وبعد فبارك الله في شعب مصر . وبارك الله في شعب إيران ، وبارك الله في كل شعب بأبي الدنية ويرفض المار ، ويعرف كيف يرفع رأسه ويقول : لا !

والسلام على روح حسن البنا موقظ الأرواح النائمة في مصر ؛ وعلى القاشاني ؛ وعلى مصدق ؛ وعلى البطل النجيب :

محمد نجيب دمتم (ع)

شكر الإسلام

يا محمد نجيب . لقد نقش اسمك على عاريف القلوب مع أسماء أبطال التاريخ

ونعد فهذه عاقبة الفسق والفجور ، واستغلال أموال الأمة وسلطانها في إرضاء الشيطان وإرواء الشهوات ؛ فاعتبروا يا من لم تصل إليهم النبوة بعد فإنها ستؤتيكم . إن الله يمهل ولا يمهل . وينسى ولا ينسى . وليعتبر الذين أثبت الله لهم من التراب ذهاباً ، وأنبع لهم من الرمال دولارات ؛ فتركوا قومهم جوعاً عطفاً وأنفقوها على الفسوق والشهوات حتى ضجت من عجبها من فجورهم بآريس مدينة الفجور

اعتبروا فإن نعم الله لا تحفظ بالمصيبة ولكن بالشكر . . وإن الأوطان لا تحمي باتباع الشهوات ، وإضاعة الأموال في البذخ والترف ؛ ولكن بقوة الجيش وإعداد السلاح ؛ وإطاعة الله ، والعمل على إعلاء كلمة الله . وإن الملك لا يكون يستمتع الملك ويلهو ، ويمدو هو وحاشيته على المرض وعلى الأرض .

ويجب أن لا يساء الفهم في هذا التحليل . فليس القصد أبدا إنكار النفع في هذه الماويل — هذه المبادئ والنظريات اشتراكية أم ديمقراطية أو غير ذلك من الأنظمة المعاصرة فهي أيضا جزء من تراث الماضي وأسلحة لا بد للجيل من أن يلجأ إليها لمواجهة مسؤولياته وتحقيق مطالبه . إنما القصد بيان الدور المهم الذي يمارسه التراث الروحي (وهو الجزء الأهم من تراث الماضي) في سلوك الناس ومبلغ الإيحاء والقوة الدافعة التي توفرها الذخيرة الروحية للذين يتسلحون بفنون العلم والنظم الحديثة ومعاولها لبناء المجتمع الجديد

وإنك لا تستطيع إلا أن تعجب لهذه البلاغة التي عبرت بها مؤلفتنا الشابة عن هذه الصلة بين فنون العلم ونظمه الحديثة وبين القوة الروحية الكامنة في تراث الماضي فهي تقول بأنها لا ترغب في شيء أشد من رغبتها في أن تتعمق في عشق المجتمع وكل ما في الكون من جمال وقبح . فهي لا ترغب في أن يعيش الجيل في برج عاجي تحيط به سحب الروح وينغمر في تراث الماضي، فهي تشارك الناس صراعمهم في الحياة اليومية (وقرة اشتراكها في حركة المقاومة السرية الفرنسية للاحتلال النازي شاهد على ذلك) ولكنها شديدة الرغبة كذلك في أن ترتفع بنفسها وبأهل الجيل عن هذه « العزلة النفسية » القاسية التي يمررون بها كلما عجزت فلسفة العلم ومعاول النظم الحديثة عن أن تحل مشاكلهم وتمهد لهم طمأنينة النفس واستقرار الروح

وهذا الارتفاع لا يكون إلا بتوطيد الصلة بين الجيل الجديد وبين العناية الإلهية والذخيرة الروحية العميقة التي خلدها تراث الماضي

فهي تسهل مؤلفها في فصل عن « الحاجة إلى الروح » وهو مثال طيب للمنطق الفرنسي حين يعتمد أن يضع قاعدة فكرية يؤمن بها ويدعو الناس كذلك إلى الإيمان بها فللحاجة إلى الروح تستند إلى افتراضين :

أولهما : أن الله موجود وكل شيء في الكون والسلوك الإنساني يثبت وجوده ، فلا العلم ولا النظم الفكرية قادرة على أن تنفي هذا الوجود وحاجة الناس إلى إدراكه واستيحاء رشده العلي وهده . وأن الله تعالى بصفته جوهر الكون هو الجندر

الروحية التي تكمن في تراث الماضي — وحين يتخذ من هذه الماويل وحدها أسلحة يواجه بها تسيار الحوادث وتيارات الفكر وانفعال الشاعر والإحساسات — لا مفر له من أن يكفر بالمجتمع والناس حين يمر بشكسة قاسية أو خذلان كبير . فهذه الماويل مجردة من الذخيرة الروحية لا تستطيع أن تبعث في رجل المصير الإيحاء والطمأنينة الصادقة حين تخفق (هذه الماويل) في تلبية حاجته عندما تدممه بعض حقائق الحياة القاسية مما لا تقوى على ترويضها فنون الاقتصاد والسياسة والخدمات الاجتماعية . فهذه الماويل مجردة من العنصر الديني والروحي العميق ليست سوى آلات ميكانيكية لا تتأثر لانفعال المرء ولا تستطيع أن تعبر عن حمايتها له وعطفها عليه حين يمر به في صراعه مع الحياة وقيامه بواجبات الجيل ومسؤولياته. الفتور والفتنة والكآبة . فهذا النوع من الإيحاء والطمأنينة والعطف والحماية مقصور على الصلة الروحية التي تربط المرء في جميع الأجيال بهذه العناية الإلهية الرحيمة الرؤوفة السمحة التي تمسك إلى النفس الثقة وتبعث في قراراتها القوة والعزم فتدفع عنها بالإيمان والاختيار الروحي الصادق شر الفتنة ومساوي الفتور وبلية الكآبة وأمراض القلق وعلل الشك

ومن ثم يجد الذين اقتصروا في تسليحهم لمواجهة مسؤوليات الجيل ومشاكله على فنون الاقتصاد والسياسة والاجتماع واستمدوا من فلسفتها ذخيرتهم الروحية — يجدون أنفسهم في حيرة شديدة .. فإذا تبين لهم أن الشيوعية لا يمكن أن تطبق إلا في ظل النظام المطلق فتصبح قاسية في حكمها على الطبيعة البشرية آتجهوا إلى الاشتراكية أو الديمقراطية كما تفسر في أوروبا والعالم الجديد لهم يجدونها أكثر سماحة في توجيه السلوك الإنساني في أقرب السالك لتحقيق ما يتطلع إليه أهل الجيل من عدالة ومساواة

ولكن طبيعة السلوك الإنساني وتسيار الحوادث أكثر تعقدا وأشد قساوة من أن تلين لهذه النظريات . وما أكثر ما يقف الذين اختاروا هذه الماويل « المادية » واجبين قلقين حين يمرى مسلحهم في التفكير والعمل نكسات تدفعهم في ساعات التجرد والتأمل أن يكفروا بهذه الماويل أو أن ينفروا من إحداها ليلتجئوا إلى أخرى ؛ وهكذا دواليك

وتتركه لشأنه . إن حسن الجوار يتطلب أكثر من الصمت وترك الجار وشأنه . إنه يفرض عليك أن تنشط للاتصال بجارك في المجتمع لتضع بين يديه ما في طبيعتك البشرية من أنس وبشر . وفي مكان آخر من هذا الكتاب تؤكد بأن « سكوتك عن ضلال الآخرين وصمتك إزاء عنيتهم وكآبتهم ومشاكلهم هو في الواقع ضرب من الخقد عليهم والسخرية بهم ، فالصمت والحالة هذه لون من الشلل النفسي وعنوان على تفاهة البش وحيوانية السلوك »

وبعد فهذا استعراض متواضع لكتاب نفيس . والكتب القيمة على نوعين : كتاب يعالج في كل فصل فكرة أو فكرتين ، وآخر في كل قرة من قراته حكمة ورأى سديد . وكتاب « الحاجة إلى الجذور » من النوع الأخير . فهذا الاستعراض الموجز لا ينصفه ولا يوفيه حقه

ولكنها على كل حال محاولة أحييت أن أعرضها للقارئ دلالة على أن حاجة جيلنا إلى الجذور حد وواجب ، وليس سرف عقلية أو رجمية فكرية ينفر منها بعض المثقفين الذين يعتقدون غلطين بأن البضاعة الفكرية المستوردة من حاضر الثقافة الغربية هي في كليتها نتاج « علماني » صلت بالحياة والذخيرة الروحية مبتورة لا وصل لها .

فأشال (سيمون وايل) من الناعين إلى صيانة تراث الماضي وعناصره الروحية كثيرون في حاضر الفكر الغربي

وجيلنا في العالم العربي سميد الحظ بأن يجد نفسه في بيئة لا يزال فيها للقيم الروحية معاقل وحماة . فاعليه إلا أن يعبر تراث الماضي قسطا وافيا من اجتهاده ، ويمرر بالذخيرة الروحية ما اختاره من معاول العلم وفنون النظم الفكرية الجديدة ليتسلح بها جميعا لمواجهة هذه المسؤوليات الجسام التي تتجدها

مرحلي

نيويورك

الأوحد لتراث الماضي والعصر الرئيسي في ذخيرته الروحية وثانيها : أن فشل العلم الحديث ومعاول النظم الاقتصادية والسياسية في الاعتراف بحاجتها إلى هدى الله قد أوجد هذه المساوي وهذا التفكك والتشويش والقلق الذي يهيمن على أفكار أهل الجيل وسلوكهم

وقد بلغ من حماس هذه المؤلفة الفرنسية لتعزيز الحياة الروحية في هذا العالم القلق أن دعت في كتابها إلى سن أقصى التشريعات ضد الذين يتعمدون تشويش الحياة الروحية من المجتمع من الطامعين في السيادة السياسية والسيطرة الاقتصادية ، وفي الكتاب والفنانين الطامعين إلى المجد الفنى مع شل الدين والقيم الروحية « الذين يثبون في عقول الناس وأفئدتهم من الصور الفنية المشوهة ما ينحط إلى مستوى البدائية فيعكرو على القيم الأخلاقية صلاحها ويدفع القيم الروحية إلى الانحطاط

والمؤلفة في دعوتها هذه تضرب يمينا وشمالا . فتهاجم (أندريه جيد) الكاتب الفرنسي الشهير لهجومه على بعض القيم الأخلاقية ، وتنقد (جاك مارتان) الفيلسوف الكاثوليكي العتيد لترمته في تفسير صلة القيم الروحية بمسؤوليات الجيل ومشاكله

وهي لا توفّر رجال الصحافة في حملتها هذه ، فتفترج لهم العقوبة الصارمة إذا ثبت عليهم جرم تزوير الأنباء وتخريف الوقائع والاتجاهات لحاجة في نفس يعقوب

و(سيمون وايل) في ثورتها على « الجرائم التي تميت فسادا في الذخيرة الروحية » مدفوعة برغبة ملحة في أن تثير في أفراد المجتمع الحساس فيمن يأنس في نفسه القدرة على أن يعين أهل هذا الجيل على مواجهة مسؤولياته بقلب آمن وفكر سليم وفتح خزائن التراث الروحي والإلهام الديني لهم ودفع شر الذين يلقون الأبواب فيزيدون دنيا هذا الجيل خلعة وظلاما

ففي كتاب آخر لها عنوانه « في انتظار الله » تقول كاتبتنا إن الذين تحمق بهم الكتابة والتعاسة ليس لهم في هذا الكون من حاجة أشد من أن يجدوا في الناس من يولهم لفظة مخلص وعناية صادقة . فلا يكتفى أن تصمت إذا ألت بجارك مصيبة